الأخلاق السياسية عند ميكيافيلي..
رؤية نقدية

د.نهاوند علي العلوي

كلية الاداب / قسم الفلسفة

nhawand.s@coart.uobaghdad

الأخلاق السياسية عند ميكيافيلي.. رؤية نقدية

د.نهاوند علي العلوي

ملخص البحث:

هذا البحث يتناول فلسفة مكيافلي السياسية، ويدافع عنه من الاتهامات التي تصوره كمروج للشر في السياسة. يقدم البحث مكيافلي كفيلسوف واقعي، يرى أن السياسة لها أخلاقها الخاصة، وأن الغاية الأسمى للسياسة هي الحفاظ على السلطة والدولة. يشرح البحث كيف يستخدم مكيافلي عملية التمثيل السياسي، ليجعل الدولة تظهر بمظهر مبدئي، ولكنها تتصرف بحسب المصلحة. يبرز البحث أن مكيافلي يعتبر أن قوة الدولة تنبع من قوة قوانينها، وأن البرغماتية التي ينادي بها مكيافلي هي وسيلة لتحقيق قوة الدولة ووحدتها. يختم البحث بالتأكيد على تأثير أفكار مكيافلي في الفكر السياسي الحديث، وعلى روح الواقعية السياسية التي تجاوزت النظريات السياسية الأخرى.

الكلمات المفتاحية : الأخلاق السياسية, ميكيا فيلي, النظرة النقدية, الخير العام, العدالة, الحرية, السيادة الشعبية, السلطة السياسية, المجتمع المدني.

Political ethics according to Machiavelli...a critical vision

Dr. Nahawand Ali Al-Alawi
College of Arts/Department of Philosophy
nhawand.s@coart.uobaghdad

Abstract

This research deals with Machiavelli's political philosophy, and defends him from the accusations that portray him as a promoter of evil in politics. The research presents Machiavelli as a realistic philosopher, who believes that politics has its own morality, and that the highest goal of politics is to preserve the power and the state. The research explains how Machiavelli uses the process of political representation, to make the state appear principled, but act according to the interest. The research highlights that Machiavelli considers

that the strength of the state stems from the strength of its laws, and that the pragmatism that he calls for is a means to achieve the strength and unity of the state. The research concludes by emphasizing the impact of Machiavelli's ideas on modern political thought, and on the spirit of political realism that surpassed the other political theories

Keyword: Political ethics, Mikia Fili, Critical view, Common good, Justice, Freedom, popular sovereignty, Political power, Civil society.

مقدمة

يعرض ميكيافيلي في كتابه *الأمير* مجموعة المسائل المتعلقة بالتاريخ والسياسة وكيفية تفاعلهما. يُطرح السؤال حول كيفية استخدام السياسيين للتاريخ كمصدر للعبر والدروس الضرورية. كما يُستفسر عن الدرجة التي يمكن للتاريخ أن يكون فيها مرشدًا ومثالًا يُحتذى به للسياسيين لاختيار أفضل النماذج للاستفادة منها. بالإضافة إلى ذلك، يُثار تساؤل آخر حول العلاقة بين السياسة والميتافيزيقا، وكيف نجحت النظرية السياسية لمكيافيلي في فصل وربط السياسة بالميتافيزيقا. يُناقش أيضاً كيف تتطلب الضرورة السياسية أحياناً التضحية بالمبادئ الأخلاقية لصالح المصلحة العليا للدولة. وعلى أساس فكرة أن للسياسة أخلاقها الخاصة، يُطرح السؤال: هل المصلحة هي المبدأ الأساسي للعمل السياسي؟ هناك أيضاً مسألة تتعلق بصورة السلطة التي تتطلب من الحاكم أن يظهر بأخلاق حتى وإن لم يكن كذلك، ومسألة العنف كممارسة واقعية تفرضها الضرورة السياسية. وأخيراً، سنناقش تأثيرات الفكر المكيافيلي.

قبل الخوض في هذه المسائل، سنبدأ بالنظر في الأساس الإبستمولوجي للفكر المكيافيلي في نظريته السياسية، والتي تقوم على الواقعية السياسية المستندة إلى التمثيل السياسي وأخلاقيات الضرورة السياسية. يرى مكيافيلي أن دور الأمير، أو الفاعل السياسي في سياقنا المعاصر، هو دور مزدوج يتطلب معرفة عميقة بطبيعة الشعب الذي يحكمه (Nicolas Machiavel, op. cit., 2007, p. 8). يجب أن يكون الأمير جزءاً من الشعب ليفهمه جيداً، وفي الوقت نفسه يجب أن يتميز عنه ليقدم نفسه كقائد. يُشبه

مكيافيلي هذه العلاقة بالرسام الذي ينظر إلى الجبال من الأسفل وإلى السهول من الأعلى، مما يُمكّنه من رؤية الصورة الكاملة. لتحصين دولته، يجب على الأمير أن يتحلى بأخلاق تفرضها الضرورة السياسية، حيث تُحدد الأفعال الناشئة عن موقعه في السلطة الأخلاق، وليس معياراً خارجياً. القوانين التي تُوجد يجب أن تكون نابعة من الضرورة السياسية وليس من مفاهيم متعالية. الهدف الأساسي هو الحفاظ على السلطة، ولتحقيق ذلك، يجب على الحاكم أن يتبع أخلاقيات الضرورة السياسية. للإجابة عن المسائل الرئيسة والمتعلقة بها، سنقسم النقاش إلى خمسة محاور رئيسية وخاتمة:

١. السياسة والتاريخ
٢. السياسة والسلطة
٣. السياسة والميتافيزيقا
٤. السياسة بين المبادئ والبراغماتية
٥. مسألة العنف السياسي
٦. الخاتمة.

السياسة: تُعرّف السياسة بأنها ما يتركّز على بعض أهم الحجج الأساسية في علم السياسة والمفاهيم المرتبطة به. (Stephen Tansey and Nigel Jackson, Essentials of Political Science, 1995, 317 pp.)

الأخلاق: تُعرّف الأخلاق في اللغة بأنها جمع كلمة "خُلُق"، وهي تشير إلى السجية والطبع والفطرة والطبيعة والعادة، ويمكن أن تكون هذه الصفات حسنة أو سيئة. (Tarjaman dictionary)

يُعتبر نيكولاس مكيافلي رائداً للنهضة السياسية الحديثة، نظراً لتمكنه من إحداث فصل إبستمولوجي (Laurence Hansen-love, La philosophie de A à Z, Hatier, Paris, 2011, page 49.) بين النظرة التقليدية للسياسة والرؤية المعاصرة التي تربطها بالأخلاق والدين والميتافيزيقا. وبناءً على ذلك، قدم مكيافلي تصوراً جديداً لمفهومي السلطة والدولة، وهذا التصور له تأثيرات ممتدة عبر التاريخ. حيث كانت الأخلاق في العصور القديمة والوسطى تُشكل الإطار الأساسي لنظريات العمل السياسي

بهدف تحقيق الكمال الأخلاقي المتجسد في السعادة والفضيلة، فإن مكيافلي قد حصر السياسة بأخلاق ذاتية (يشير مفهوم "الأخلاق الذاتية" إلى أن الأفعال الأخلاقية لا تُقيّم بناءً على معايير ومقاييس خارجية تُحدد ما إذا كانت أخلاقية أم لا. بل يعني أن الأفعال الأخلاقية تولّد من ذاتها معايير داخلية تُستخدم لتقييم مدى أخلاقيتها.)، بحيث أصبح المعيار في العمل السياسي معياراً داخلياً (The previous source, p. 224)، وليس خارجياً كما كان يُنظر إليه في الفلسفات القديمة؛ أي أن الأخلاق السياسية تُفرض من داخل اللعبة السياسية نفسها، وهي أخلاق تُؤكد بالضرورة من خلال العمل السياسي نتيجة لتضارب المصالح بين القوى المختلفة في المجال السياسي، ومن هنا يمكن استنتاج وجود إرادات خفية تسعى لتحقيق مصالحها من وراء العمل السياسي. وعليه، يجب على الأمير أو الحاكم أن يدرك هذه الحقيقة جيداً ويستخدم جميع الوسائل المتاحة له للسيطرة على السلطة والحفاظ عليها، مثل التظاهر بالتدين، حب السلام، الكرم، الشجاعة، القوة، الهيبة... إلخ، وهذه من الفضائل التي ستساعده على البقاء في السلطة، وكذلك الرذائل مثل القسوة، الوحشية، البخل...؛ لأن التعامل مع السلطة بالنسبة لمكيافلي يتطلب القدرة على التمثيل السياسي؛ أي أن يكون الحاكم ماهراً في أداء دوره في المسرحية السياسية التي يلعب فيها الدور الرئيسي؛ وذلك بتحديد الهدف الواضح وهو السلطة، التي تتطلب حاكماً يتقن قواعد العمل السياسي؛ لأنه إذا كان الهدف الأسمى هو امتلاك السلطة والحفاظ عليها، فإنه يجب على الحاكم أن يتقن قواعد اللعبة السياسية.

السياسة والتاريخ:

من وجهة نظر مكيافيلي، يجب أن يلعب التاريخ والزمن دوراً محورياً في السياسة، حيث يُتوقع من الفاعل السياسي أن يستخلص الدروس والعبر من التجارب السياسية الماضية والحالية ليدعم بها استمرارية حكمه. يرى مكيافيلي أن الأمراء الذين حققوا إنجازات كبيرة قد استفادوا من دروس التاريخ في توجيه سياستهم (Octave Larmaganc-Matheron, philosophie magazine, Machiavel, comment le pouvoir se prend, se garde ou se perde, Hors-série, page 17)،

وغالباً ما استخدموا الخداع والمكر للوفاء بوعودهم. يُظهر التاريخ أن السياسيين يجب أن يستفيدوا من الخبرات المكتسبة لتحديث أساليبهم السياسية باستمرار، وتجنب تكرار الأخطاء لتحسين مسارهم السياسي. يُشير مكيافيلي إلى أهمية النماذج التاريخية مثل الإسكندر السادس وهانيبال بينتيفوجليو(Nicolas Machiavel, op. cit., 2007, p. 90)، ويُحذر من تقليد النماذج الفاشلة. يُعتبر الاستفادة من الدروس التاريخية وتقليد النماذج الناجحة أمراً ضرورياً للحفاظ على السلطة وعدم إساءة استخدامها. يُؤكد مكيافيلي على أن السياسي يجب أن يتعامل مع الشر والخير بناءً على النتائج الإيجابية المحتملة وليس بناءً على طبيعتهما الأخلاقية.

يُظهر النص المكيافيلي تكراراً للأشخاص والأحداث والنماذج، وهو ما يُعتبر تأكيداً على أهمية النموذج المُقدم. يُعد الواقعية السياسية والمكر والخديعة جزءًا لا يتجزأ من ميدان السياسة، ويجب على الفاعل السياسي أن يتبع هذا النهج للحفاظ على السلطة. يُعتبر الإسكندر السادس نموذجاً للسياسي الذي يستخدم الخداع للحفاظ على سلطته، ويُشجع مكيافيلي على تقليده. من ناحية أخرى، يُشير إلى الأمراء الذين فشلوا في الحفاظ على سلطتهم، مثل ماركوس أوريليوس وأبنائه. وتُعتبر العلاقة بين السياسة والتاريخ تفاعلية، حيث يجب على السياسي الاستفادة من التجارب المحيطة به، وتقليد النماذج الناجحة وتجنب الفاشلة للحفاظ على السلطة وعدم إساءة استخدامها. يُعد الفعل السياسي الممتد عبر التاريخ جزءاً لا يتجزأ من مسيرة الفاعل السياسي، ويجب عليه ألا يغفل عنه.
ميكيافيلي يُظهر تردداً وتقلباً في تصوره لمدى تأثير الإنسان في التاريخ، ويخلص إلى أن دور الله في التاريخ ليس أساسياً، ممتزجاً بين الطبيعة والإرادة الإلهية، ومنح قوانين الطبيعة سيطرة كاملة، كأنها إله نشط وقوي. ويتساءل ميكيافيلي حول إمكان البشر القدرة عموماً على التأثير الواعي في سير التاريخ؟ ويطرح هذا السؤال بغرض عملي، قائلاً في "الأمير": "أي دورٍ للقدر في الأمور الإنسانية؟"، ويعرّف "القدر" بأنه كل ما هو خارج عن إرادة الإنسان، موضحاً: "لست أجهل مطلقًا بأن كثيرًا من الناس فكروا وما زالوا يفكرون بأن الله والقدر يُدبران أشياءَ هذا العالم بطريقة لا يتمكَّن معها كلُّ التعقل الإنساني من توقيف مسارها أو تنظيمه، ومن ثَمَّ يمكن الاستنتاج بأنه من غير المُجدي الاهتمام

بذلك بكثيرٍ من المشقة، وأن الأمر لا يستدعي سوى الإذعان وترْك كل شيء يسير حسب القدر"، بعد التفكير في هذا الموضوع عدة مرات، يمكن جزئياً الركون إلى هذا الاعتقاد، ومع ذلك، لا يمكن أفتراض أن حرية الاختيار لدينا تصبح عديمة القيمة، بيد أنه قد يكون صحيحاً أن القدر يتحكم في نصف أعمالنا، لكنه يترك النصف الآخر تحت تصرفنا تقريباً.

وفيما يتعلق بالدور الذي يمنحه ميكيافيلي للطبيعة التي يُشبهها بـ(الإله)، يُشير إلى أن الإرادة الإنسانية مقيدة بعوامل طبيعية مثل الغرائز والميول الطبيعية التي لا يمكن مقاومتها، كما هو الحال مع سقوط الحجر الذي تحكمه الجاذبية والثقل. وبينما يكاد يكون دور الله في التاريخ معدوماً عند ميكيافيلي، نجد أن الفاعلية الإنسانية أيضاً هامشية؛ فهي خاضعة لغرائز ميكانيكية مهيمنة ولقوانين طبيعية، الإنسان جزء من الطبيعة ولا يستطيع التحرر من قوانينها، وهو حر فقط فيما يخص قدرته على التصرف بناءً على قراراته الشخصية، الحرية لا تعني الانعتاق من القيود الطبيعية (Max Horkheimer, The Beginnings of Bourgeois Philosophy of History, Translation: Muhammad Ali al Yusufi, p. 12, First Arabic Edition, Digital Copy, 1981).إذاً، الطبيعة وليس الله أو الإنسان، هي القوة الأكبر في التاريخ البشري، وبالتالي يتقدم التاريخ بشكل ميكانيكي فيزيائي، وتُعتبر الدولة في السياق الإنساني (القوة) الموازية لقوى الطبيعة في السياق الكوني! ويذكر ميكيافيلي في إحدى رسائله:

"إن الطبيعة مثلما أعطت الناس وجوهًا مختلفة، وهبَتهم أيضًا عقلاً مختلفًا وأفكارًا مختلفة، وينتج عن ذلك أن كل شخص يتصرف وفقًا لعقله وفكرته" ويعود الخلل في تصور ميكيافيلي للتاريخ إلى جعل هذا النمط الخاص "للتفكير والإحساس" مرتبطاً بعوامل طبيعية ثابتة عبر التاريخ دون الأخذ بعين الاعتبار التغيرات الاجتماعية. ووفقاً لمفهوم العلم الحديث، فإن ما هو ثابت نسبياً فقط هو الذي يمكن تفسيره، وبما أن الذرات تُعتبر عناصر ثابتة، فقد أصبح هذا الاعتقاد أداة تفسيرية للفيزياء، وبالمثل، تُعتبر طبائع الإنسان لدى ميكيافيلي آخر دليل يسمح بتفسير مسار التاريخ؛ لأنها تنبع من عناصر نفسية ثابتة: "الغرائز والأهواء التي لا تتغير" (The previous source) مكيافيلي لم

يخطئ فقط في افتراضه بأن طبيعة الأفراد الفاعلين في التاريخ تبقى متطابقة، بل أغفل أيضًا الروابط بين الظروف الاجتماعية وكيفية الحفاظ على بعض الخصائص النفسية أو تغييرها. باستثناء هيغل، لم يتجنب معظم الفلاسفة في العصر الحديث هذا الخطأ. اليوم، يُنظر إلى علم نفس الأعماق على أنه يفسر الحياة النفسية للفرد كنتاج للظروف الخارجية. تُعتبر الأسرة من أهم هذه العوامل الخارجية، ولكنها تتغير بحسب السياق التاريخي والوضع الاجتماعي لأعضائها. هناك أنماط سلوكية ظلت نسبيًا ثابتة حتى الآن، ولكن القدرة على تفسير كيفية ارتباط هذه الطبائع بالعلاقات الاجتماعية التي يعيش فيها الفرد ويتطور ضمنها أصبحت ممكنة اليوم بشكل أوسع. لذلك، يصعب إنشاء أنثروبولوجيا فلسفية، أو نظرية حول طبيعة الإنسان الخاصة، تقدم دلائل نهائية على مفهوم الإنسان الذي لم يتغير عبر التاريخ. وعلى الرغم من أن هذه المحاولات ما زالت في مرحلة البحث والنتائج التجريبية، ولا يمكن تجاهل طابعها المؤقت، إلا أنها تساهم في رفع مستوى القضايا والنتائج فوق مجال العلم المتخصص وتساعد في البحث عن الروابط الحقيقية. كما تقربنا هذه المحاولات من تحديد مفهوم الإنسان الذي تتضمنه نظرياتنا التاريخية والاجتماعية. لا يمكننا الحديث عن جوهر الإنسان إلا من خلال تجلياته. والتصريحات النهائية حول جوهر الواقع تتعارض مع الطبيعة الاحتمالية التي يجب أن تتسم بها أي توقعات مبنية على الأحداث الفعلية. ويمكننا اليوم تجنب النظرة الأنطولوجية التي تقول بثبات النفسية البشرية دون التخلي عن استخدام علم النفس كأداة للتفسير التاريخي. وينظر ميكيا فيلي إلى الأحداث التاريخية كعمليات تطور طبيعي، متمسكاً برغبته في تفسير الأحداث بطريقة سببية محدودة، مستنداً إلى الضرورات المادية والعوامل الطبيعية التي تحكم الأشخاص المشاركين في النزاعات السياسية. لكن هذا الادعاء لا يصمد أمام التدقيق. فعندما ننظر إلى الكون ككل، لا يمكن إنكار أن العلم يهدف إلى تفسير كل عملية تطور بناءً على قوانين محددة تنبثق من شروط معروفة مسبقاً، ومن المعقول أيضاً محاولة فهم الظواهر التاريخية ضمن تعقيداتها السببية. الاعتراض على النزعة الطبيعية يفترض بشكل دوغمائي وجود اختلاف في المنهجية قبل التجربة، سواء كان ذلك ينطبق على الطبيعة أو التاريخ. وبناء النقد على مفهوم النزعة الطبيعية بهذا المعنى يعني رفض

أي دراسة مثمرة للعلاقات التاريخية. الاعتقاد بأن أفعال الناس غير مشروطة بشكل ظاهري وتحويلها إلى حقيقة جوهرية هو خطأ يقارب إلى حد كبير الخطأ الذي نوقش في فلسفة مكيافيلي.

يؤكد مكيافيلي بنفسه أن إرشاداته تستهدف كلاً من الأمراء والجمهوريين، مقدماً بحيادية نصائح لكل من مصالح الأمراء والتكتيكات التي ينبغي على أعدائهم اتباعها للإطاحة بهم، وأحياناً ضمن نفس الفصل. يقدم مشورته للحكومات وكذلك للمتآمرين ضدها. إذا كان قد اختار هذا الأسلوب، فهل يعني ذلك أنه كان مهتماً فقط بديناميكيات القوة في المجتمع؟ هل كان متأثراً بالصراع على السلطة كتجسيد للحياة، متجاهلاً جميع العواقب، ومدفوعاً فقط برغباته الشخصية؟ هذا ما فهمه البعض عن مكيافيلي تحت تأثير فلسفة الوجود الحديثة. يبدو النداء الحماسي لاستقلال إيطاليا في الفصل الأخير من "الأمير" كأنه يعبر عن حماسة غير محسوسة أمام قوة حيوية. ومع ذلك، حتى لو لم يكن هذا التصور خاطئاً تماماً من الناحية النفسية، فإنه يقلل من الأهمية الموضوعية لأفكار مكيافيلي.

على الرغم من التناقضات الظاهرة، لا يوجد لدى مكيافيلي سوى هرم قيمي واحد يعتبره طبيعياً ومسلماً به، ولا يشكك فيه ويعبر عنه بوضوح. لا يقدم نصائحه للملوك والحكام الجمهوريين لمصلحتهم الشخصية؛ بل يهدف إلى تحقيق القوة والعظمة وترسيخ الدولة البرجوازية (Max Horkheimer, Marx Horkheimer, Translation: Muhammad Ali al-Yusufi, p. 17, Dar al-Tanweer, 1982). وعلى الرغم من الغوص في تفاصيل الأحداث السياسية في إيطاليا خلال عصر مكيافيلي ومشاركته الشخصية في السياسة، إلا أن القليل فقط تمت مناقشته حول النتائج النظرية الهامة لتجاربه. هذه النتيجة تتعلق بفهمه أن ازدهار المجتمع يعتمد على تطور العلاقات الاجتماعية وإزالة العوائق التي تحول دون تقدم البرجوازية في التجارة والصناعة وحرية القوى الاقتصادية – وهذا التطور لا يمكن ضمانه إلا من خلال دولة قوية. استخلص هذا الدرس ليس فقط من عمله الدبلوماسي ومشاركته في الحروب الداخلية لفلورنسا، بل وجد تأكيدات له في التاريخ ككل، وخاصة في الفترة التي شهدت ازدهار روما القديمة. ولا

تعتبر السياسة في نظر مكيافيلي المهمة الأنبل للمفكر إلا إذا كانت الدولة هي الشرط الأساسي للتطور البرجوازي للفرد والمجتمع.

في الحقيقة، استخدم مكيافيلي أساليب السيطرة التي استقاها من التاريخ في السياسة، لكنها لم تكن تهدف عادةً إلى تحقيق أهداف نبيلة. يشرح مكيافيلي في الفصل الثامن من "الأمير" أن الأمير قد يخل بالمعاهدات ولا يلتزم بوعوده، ويوضح أن الدين كان يُستخدم دائماً للحفاظ على هيمنة الطبقات الحاكمة. يسخر من المقارنة بين مزايا الديانة المسيحية والوثنية، ويعتبر الإبادة الجماعية للشعوب أحياناً وسيلة مقبولة في ظروف معينة. يؤكد أن الأمور المقدسة والجرائم الشنيعة كانت دائماً أدوات في يد الحكام، مما يشكل فلسفة تاريخية ذات مغزى عميق. الخطأ الذي وقع فيه مكيافيلي، والذي تفاقم مع مفهوم حق الدولة فيما بعد، هو تبريره لأساليب السيطرة التي كانت ضرورية في عصره وبلاده لصعود البرجوازية. إسناد قيمة دائمة لما هو صالح لفترة مؤقتة يعد عيبًا في فلسفة التاريخ الحديثة.

السياسة والسلطة:

مفهوم السلطة عند ماكيافيلي يدور حول فكرة الهيمنة والسيطرة، حيث يقدم مجموعة من الخيارات للحاكم للتعامل مع التحديات المختلفة. يحاول ماكيافيلي بذكاء تجنب المواجهات المباشرة بين الأمير ورعيته، معتمداً على حسابات منهجية تأخذ مساراً خارجياً يتمثل في السيطرة على شعب أو بلد آخر. يضع الأمير خياراته الثلاثة التي تتضمن تجريد الآخر من أي قوة محتملة، أو الإقامة في مناطق التوتر للتعامل السريع مع المشكلات، أو الاكتفاء بأخذ الجزية كدلالة على الولاء دون المساس بالقوانين والأعراف السائدة.

يبحث السياسي عن ضمانات لفرض السلطان والهيمنة، متجهاً نحو التبشير بالسيطرة من خلال إرساء منطق المواجهة المباشرة، يقول: "إهدم أو تكون أنت عرضة للتهديم" (Machiavelli, 2002 77). يجب على من يتعرض للاحتلال أن يسعى لنيل استقلاله وحريته، مستدعياً الأعراف والتقاليد والمفاهيم الأساسية السائدة. ولتسهيل مهمة

الهيمنة، يرى ماكيافيلي أن السبيل يمر عبر تفريق الشعب وإضعاف إرادتهم في اختيار قيادة قوية. ويتوقف ماكيافيلي أيضاً عند النموذج الجمهوري، مشيراً إلى حيويته وتمسكه بالحرية. يقدم نصيحته لمواجهة هذا النموذج بخيارين: إما التدمير التام أو الإقامة المباشرة وإحكام السيطرة والمراقبة. هذه النصائح تعكس فهم ماكيافيلي العميق للسياسة والسلطة، وتظهر رؤيته للهيمنة كأداة للحفاظ على النظام والاستقرار.

مفهوم السلطة عند ماكيافيلي يعتبر من المواضيع الأساسية في الفكر السياسي، وهو يركز على الواقعية السياسية والفعالية في الحكم. يؤكد ماكيافيلي على أهمية القوة والمكر في الحفاظ على السلطة وتوسيعها. يعتبر أن الحاكم يجب أن يكون قادراً على التكيف مع الظروف المتغيرة واستخدام جميع الوسائل المتاحة لضمان بقائه في السلطة. يشير ماكيافيلي إلى أن الحاكم يجب أن يكون "أسداً" لإخافة الذئاب، و"ثعلباً" للتعرف على الفخاخ. الأسد يرمز إلى القوة والشجاعة، بينما الثعلب يرمز إلى الدهاء والمكر. يجب على الحاكم أن يكون قادراً على استخدام القوة عند الضرورة، ولكن أيضاً أن يكون ماكراً وحذراً لتجنب الأخطار. وفقاً لماكيافيلي، الغاية تبرر الوسيلة. يعني هذا أن الحاكم يجب أن يكون مستعدا للقيام بأي شيء للحفاظ على السلطة، حتى لو كان ذلك يعني اللجوء إلى العنف أو الخداع. يجب على الحاكم أن يكون مرناً وأن يتجنب الأخلاقيات الثابتة التي قد تعيق قدرته على الحكم بفعالية. في النهاية، يعتبر ماكيافيلي أن الحفاظ على السلطة والاستقرار هو الهدف الأسمى للحاكم، وأن جميع الوسائل مبررة في سبيل تحقيق هذا الهدف.

يقدم ماكيافيلي نظرة واقعية وعملية للسياسة، مع التركيز على النتائج بدلاً من الأخلاقيات المثالية."قد يتبنى البعض مبدأ أن النتائج تبرر الوسائل دون النظر إلى الأخلاقيات أو الشرعية. ومع ذلك، يجب علينا التساؤل: هل يمكننا استبعاد هذا المبدأ من حياتنا واعتباره خاطئاً بشكل قاطع؟ من الواضح أن الشخص ذو الأهداف النبيلة يسعى أولاً لاستخدام الوسائل الأخلاقية والمشروعة، بينما الشخص ذو النوايا السيئة لا يتردد في استخدام أي وسيلة لتحقيق أهدافه الضارة، بغض النظر عن الأضرار التي قد تلحق بالمجتمع. من المهم التمييز بين مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" والقاعدة الشرعية "الضرورات

تبيح المحظورات". مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" لا يخضع لشروط أو معايير، وقد فسره ماكيافيلي بطريقة تظهر عدم تقييده بأي شروط. بينما القاعدة الشرعية "الضرورات تبيح المحظورات" مقيدة بشروط وضوابط شرعية تجعل المحظور مباحاً في حالات معينة. على سبيل المثال، يجوز التظاهر بالكفر تحت الإكراه شريطة ألا يكون الكفر في القلب، وكذلك التورية والكذب في سبيل الإصلاح بين الناس في حالات محددة. لذا، يمكننا تعديل المبدأ الأول لنقول: إن النتائج (قد) تبرر الوسائل إذا كانت الأهداف نبيلة والوسائل مشروعة، ويجب أن تكون الوسائل المشروعة مقيدة وتتبع الضرورات التي تبيح المحظورات.

ميكيافيلي لاحظ أن تحديات السياسة والمجتمع تشبه الأمراض؛ فهي صعبة الكشف في البداية لكن يسهل علاجها، بينما تصبح سهلة الكشف لكن صعبة العلاج في مراحلها المتقدمة. إنها حكمة ثمينة لا تفقد قيمتها مع مرور الزمن؛ فلنتضرع إلى الله أن يمنحنا الحكمة لنتمكن من التشخيص الدقيق مبكرًا، وأن نتحمل العلاج اللازم في المراحل المتأخرة. عاش ميكيافيلي في عصر ما قبل الديمقراطية الأوروبية، وسعى لإرشاد الأمراء للنجاح في زمانهم؛ ومن بين ما كتبه أن الرجل المسلح لا يخضع للأعزل بإرادته؛ ولا يبقى الأعزل آمناً بين جنوده المسلحين؛ وأن الجنود لا يحترمون أميراً جاهلاً بالشؤون العسكرية، ويجب على الأمير أن يستمر في التدريب العسكري، وأن يشغل وقته بالأنشطة البدنية القاسية، ويعود جسده على التحمل والجهد. هذا يفسر لماذا درس ملوك وأمراء أوروبا في الأكاديميات العسكرية، ولماذا كانت الحرب مهنتهم، ولماذا كانوا يظهرون دائماً في الزي العسكري. كان ذلك في زمن كان فيه الأمراء يمارسون الصيد وتسلق الجبال والتخييم في البرية، ولم تكن لديهم رفاهية ممارسة الجولف، وهي لعبة السلام والرخاء التي لم تأت إلا فيما بعد.

ميكيافيلي أشار إلى أن النخب تتنافس على السلطة وتقوض حكم بعضها البعض، وأن نجاح الأمير يعتمد على السيطرة على النخب وإرضاء العامة وكسب مودتهم. فصّل بين سياسة النبلاء وسياسة الشعب، فمن يصل إلى الحكم بدعم النبلاء يجب أن يتحمل منافستهم واحتفاظهم بسلطات تقلل من سلطته، وربما يواجه تحديهم وانقلابهم عليه. أما الشعب فيختلف الأمر بالنسبة لهم، فهم يسعون فقط إلى العدالة. في

علاقاته مع المنافسين، يجب على الأمير ألا يلتزم بعهد إذا كان الوفاء به يتعارض مع مصلحته، وألا يستمر في الوفاء بوعد إذا انتهت الأسباب المبررة له، وليس من الصعب إيجاد الأعذار المقبولة لتبرير عدم الوفاء بالعهد. اللين مضر ويؤدي إلى الفوضى، وهناك الكثير من الأشخاص الطيبين الذين يعرفون كيفية تجنب الأخطاء أكثر من معرفتهم بكيفية تصحيح أخطاء الآخرين ومعاقبتهم عليها لمنع تكرارها. للانتصار على الخصوم قواعد، ومن نصائح ميكيافيلي أن تنتصر على خصمك لكن تجنب إهانته؛ فحتى المصالح الجديدة لا تمحو آثار الإهانات القديمة. ومن نصائحه أيضاً أن احترام الممتلكات ضروري، فقد يغفر الناس لقاتل أبيهم لكن لن يغفروا له إذا حرمهم من ميراثهم. إذا أردت الفوز بتعاون الخصم، فعليك مساعدته على ادعاء النصر، حتى لو كان في الواقع قد قدم تنازلات كبيرة. تجنب إهدار كرامة الخصم، ولا تتصرف بطريقة تجبره على التناقض مع مبادئه ومصالحه. احفظ ماء وجه الخصم وكرامته، فكلما ابتعدت الكرامة عن حسابات السياسة، كان التوصل إلى اتفاق أسهل. لسياسة الناس قواعد تختلف عن سياسة النخب، والأمير الناجح لا يخلط بينهما. الناس يقاومون كل جديد ولا يقبلونه إلا بعد التجربة. إذا كان لا بد من اتخاذ قرارات صعبة، فمن الأفضل أن تأتي دفعة واحدة، لأن ذلك أقل ضرراً من تكرار الأحداث التي تبقى آثارها لفترة طويلة؛ أما المزايا فيجب تقديمها تدريجياً، ليستمتع الناس بها ويشعروا بفوائدها.

يمكن تبسيط فكر مكيافيلي بأن إدارة الشعوب والجماعات تختلف عن إدارة الأفراد، وتتمركز الاختلافات الأساسية حول الحفاظ على العهود والمعاهدات، والإجراءات الأمنية الواجب اتخاذها من قبل كل حكم جديد سواء كان ملكياً أو جمهورياً، وأخيراً الدين. من الضروري التعامل مع كل من هذه النقاط بشكل منفصل قبل الخوض في المبدأ الأساسي الذي يستند إليه مذهب مكيافيلي. يجب الإشارة إلى أن مكيافيلي لا يدعي أن القواعد التي تنطبق على الأفراد لا يمكن تطبيقها على الحكام والمحكومين بشكل عام. ما يؤكده هو أنه على الرغم من الحاجة إلى الالتزام بهذه القواعد بشكل عام، هناك حالات وظروف لا تصلح فيها هذه القواعد للتطبيق ويجب تجاهلها، وهذه الحالات كانت شائعة جداً في عصره. يقدم الأدلة على وجهة نظره من خلال الأمثلة التي يرى أنه يجب التركيز

عليها في كل نقد يقوم به، ويعتبر النكث بالعهود والمعاهدات جزءاً مما يسميه مكيافيلي بالدهاء والحيلة. وفي رأيه، النقيض للخداع هو الاستقامة، لكن العالم كما يراه، خُلق بطريقة لا يمكن لأي حاكم أن ينجح فيها إلا إذا كان يجمع بين القوة والمكر، أي استخدام القوة والحيلة وفقاً لمتطلبات الظروف والأوضاع.

لا شك أن مكيافيلي استلهم فكره هذا من شيشرون الذي قال:"ان من يتشبه بالاسد دائماً لا يدري ما يفعله. فليس من واجب الحاكم العاقل ان يحافظ على اتفاقاته، إذا كان الحفاظ عليها يؤدي إلى الاضرار به، أو إذا كانت الاسباب التي دفعته إلى عقدها، لم تعد صالحة وقائمة"(Niccolò Machiavelli, Translation: Khairy Hamid, Machiavelli's Discourses, p. 129, 1st edition). ولو كان مكيافيلي يستخدم مصطلح "الحيلة" وحده ليعني به التحلل من المعاهدات بناءً على أساس تقني فقط، لما كان هناك استثناء كبير لما يقوله. ولكنه يعني أكثر من ذلك، فهو يرى أن الشخص يجب أن يظهر التزامه بالقانون بحرفيته بينما يتلاعب بمعانيه وأهدافه. وبالطبع، ينطبق هذا على المعاهدات والاتفاقات والعقود، حيث يقول: "لن يعدم الأمير أبداً وسائل قانونية مشروعة يتخذ منها مبرراً لتجاهله للقانون"(The previous source). وقد سار الرومان على هذا النهج دائماً وحققوا من خلاله العديد من المنافع. وكان هذا هو الأسلوب الذي اتبعوه دائماً في شن الحروب على الدول القوية التي تحترم المعاهدات. ويقول في مقالاته: "فاذا أردت مثلاً ان أشن الحرب على أي أمير، وكانت بيني وبينه معاهدة يحترم كلانا نصوصها منذ أمد ما، فاني أبحث بدلاً عن مهاجمته عن مبرر أو سبب آخر لمهاجمة أحد حلفائه، مع ادراكي التام بأن هجومي على هذا الحليف، سيؤدي إما إلى غضبه هو، وهذا ما أتوخاه، إذ تصبح الحرب محتومة، أو إلى تحايله، مما يظهر ضعفه وعدم الركون اليه" (The previous source، p١٢٩-١٣٠). بهذه الطريقة، يمكن الادعاء بأن المعاهدة ما زالت سارية من الناحية الفنية، حيث لم تُشن الحرب على أي من الطرفين الموقعين، بل على حليف أحدهما. ومع ذلك، فإن الهدف الأساسي للمعاهدة – وهو منع الحرب – قد تم تجاوزه. توضح تصريحات مكيافيلي هذه مفهوم "الحيلة" عند استخدامها بمعناها التقني، وكذلك مفهوم "الدهاء"، حيث يتطلب العثور على ثغرة قانونية

الكثير من الذكاء والدهاء. لكن للأسف، هذا ليس السياق الوحيد الذي يستخدم فيه مكيافيلي مصطلح "الحيلة"، فأحياناً يشير به إلى خرق المعاهدات والعهود بتصميم مسبق وعمد، أو اتباع أساليب الخداع الصريحة.

السياسة والميتافيزيقا:

مكيافيلي أحدث تحولاً جذرياً في الفكر السياسي، مفصلاً بينه وبين الميتافيزيقا التقليدية التي كانت تشكل إطاراً للفلسفة منذ عصر أرسطو، مروراً بالفلاسفة المسلمين وصولاً إلى توماس الأكويني. هذا التحول لم يكن انفصالاً ميكانيكياً يعزل كل جانب عن الآخر، بل كان تمييزاً واعياً يعكس نضج الفعل السياسي واستقلاله عن الميتافيزيقا التي قد تجعل مسائله أكثر تعقيداً. وبالتالي، تطورت السياسة لتشكل أخلاقياتها الخاصة من خلال عملها السياسي، مما سمح لها بالتحرر من قيود الميتافيزيقا والاعتبارات الخارجية التي قد تعيق الفعل السياسي.

مكيافيلي طور نظرة جديدة للسياسة تحدد علاقتها بالميتافيزيقا، وخاصة الدين والأخلاق الدينية التي ينبغي أن تميز الفاعل السياسي. وفقاً له، الانفصال بين السياسة والميتافيزيقا لا يعني الانفصال عن جميع أشكال الميتافيزيقا، بل فقط عن تلك التي تكون مثالية للغاية وتعيق الفعل عند محاولة تطبيقها. وبهذا، لم يعد من الضروري أن تسعى السياسة لتحقيق السعادة، بل يجب أن تتعامل بدهاء وواقعية مع الشؤون العامة. أما الدين، فهو موضوع منفصل. ويرى مكيافيلي أن أخلاقيات الفاعل السياسي يجب أن تكون سياسية، بما في ذلك الأفعال الدينية والأخلاقية، وليست محكومة بمعايير دينية أو أخلاقية خارجية. ولذلك، أزال عن السياسة الغطاء الميتافيزيقي، لكنه لم يتخل عن الدين بشكل كامل؛ لأن الدين بالنسبة له يلعب دوراً مهماً في تعزيز سلطة الحاكم. ومن المفيد للحاكم أن يظهر بمظهر المتدين وأن يكون كذلك بالفعل، خاصة أن صفة التدين تحظى بأهمية كبيرة لدى العامة الذين يحكمون بما يرونه (Nicolas Machiavel, Le Prince, Hatier Poche, Chapitre XVIII, 2007 P, 86.) ويستشهد مكيافيلي بالملك الإسباني فرديناند، الذي اكتسب القوة بفضل دعم الكنيسة والشعب (Nicolas

Machiavel, op. cit., 2007, p. 106)، مما يدل على أن استخدام الدين في السياسة يمكن أن يكون له تأثير إيجابي، خاصة إذا كان يخدم مصلحة الدولة ويمكن الحاكم من السلطة.

بالنسبة لمكيافيلي، تكمن العلاقة المعقدة بين الدين والسياسة في الأداء السياسي المسرحي، حيث يجب على الحاكم إتقان هذا الفن. إذا لم يكن متديناً بطبعه، فيتوجب عليه أن يظهر بمظهر المتدين، متبنياً دين الشعب الذي يحكمه، فالحاكم هو الحامي الرسمي لدينهم. الدين يلعب دوراً حيوياً في توحيد المجتمع سياسياً واجتماعياً، ومن الضروري أخلاقياً للحاكم أن يحافظ على دين الشعب، حتى لو لم يكن متديناً بالفعل، يجب أن يظهر كذلك بكل الطرق المعروفة في مجتمعه. هذا ليس نفاقاً، بل ضرورة سياسية تتطلب من الحاكم أن يدير الشؤون الدينية للحفاظ على السلطة. يجب أن يكون الدين تحت إدارة الدولة لتجنب النزاعات السياسية على هذا الأساس. كما يجب على الحاكم أن يمتلك مهارات معينة، وإن كانت هذه المهارات ضرورية، فلا يشترط أن تكون جزءاً من شخصيته، لكن من المهم أن يظهر بمظهر الماهر؛ لأن السياسة تتطلب القدرة على التمثيل ومعرفة الجمهور.

العلاقة بين الدين والسياسة ليست انفصالاً تاماً يفصل الدين عن السياسة، وليست اتصالاً مباشراً بينهما، بل هي علاقة تشغيلية تستخدم فيها السياسة الدين لأهداف سياسية تساعد الحاكم على الحفاظ على السلطة. الدين هنا يعمل كأداة تشغيلية تمكن الحاكم من تقييم فائدة الدين لنفسه وللدولة والمجتمع، ومدى ضرره لهم. بهذا المعنى، يمكن اعتبار الدين قانوناً تستخدمه الحكومات لتحقيق مصالح سياسية، كزيارات الرؤساء والملوك لرجال الدين والعكس. إذا نظرنا إلى الأسباب وراء هذه الزيارات، سنجد أن هناك مصالح سياسية تقف خلفها. لذلك، يجب على الحاكم أن يعرف كيف يستخدم الدين لمصلحة الدولة؛ لأن هذا هو الهدف من استخدامه.

وفي النهاية يمكن القول: إن مكيافيلي يُعتبر واقعياً سياسياً، حيث ينظر إلى الطبيعة البشرية والسلطة من منظور عملي واستراتيجي، مع التركيز على كيفية تحقيق والحفاظ على السلطة. فهو لم يتطرق بشكل مباشر إلى الموضوعات الميتافيزيقية مثل

الوجود والكون والخلود، بيد أن نظرته الواقعية للسياسة تعكس فهماً معيناً للطبيعة البشرية والعلاقات الاجتماعية التي يمكن اعتبارها جزءاً من الميتافيزيقا العملية.

السياسة بين المبادئ والبراغماتية:

غيّر مكيافلي النظرة إلى العلاقة بين السياسة والأخلاق، فبدلاً من أن تكون السياسة مبنية على مبادئ أخلاقية مثالية، أو على ما يجب أن يكون الواقع، اقترح مكيافلي أن تكون السياسة واقعية وعملية، وأن تستند إلى ما هو موجود فعلاً. وبهذا، فصل مكيافلي بين الأخلاق النظرية، التي تتعلق بالقيم والمثل، والأخلاق العملية، التي تتعلق بالمصالح والنتائج. وأكد مكيافلي أن السياسي يجب أن يتبع الأخلاق العملية، وأن يلعب اللعبة السياسية بحسب قواعدها، وأن يضع مصلحة الدولة فوق كل شيء. ولتحقيق هذه المصلحة، يجب على السياسي أن يجمع بين استخدام القوانين والقوة، وأن يكون مرنا وماهراً في التعامل مع المواقف المختلفة. وأشار مكيافلي إلى أن السياسي يجب أن يكون قادراً على التحول بين شخصيتين: شخصية الإنسان (Nicolas Machiavel Le Prince, Hatier Poche, Chapitre XVIII, 2007 P , 84)، التي تحترم القوانين والعقل، وشخصية الحيوان، التي تستخدم القوة والعنف. وأمثلة على هذه الشخصيتين هي الأسد، الذي يرهب الأعداء، والثعلب، الذي يتجنب الفخاخ. وأوضح مكيافلي أن السياسي الناجح هو الذي يستطيع أن يكون أسداً وثعلباً في نفس الوقت، وأن يعرف متى يستخدم كل منهما (Nicolas Machiavel, op. cit., 2007, p. 85). وأن السياسي الذي يعتمد على الأسد فقط، سيفشل في فهم السياسة، وبذلك يفقد القدرة على الصمود.

مكيافلي يعطينا مثالاً يبين أن السياسة تضم قوى مختلفة، وكل قوة لها طريقة خاصة بها، فبعضها يعتمد على قوة الإنسان، وبعضها على قوة الحيوان، وبعضها يجمع بينهما. لهذا السبب، ينصح مكيافلي الأمير بأن يستخدمهما معا بالتأكيد، ويبرز الجانب الوحشي والعنيف للفاعل السياسي، ويقول إنه يجب أن يكون أكثر عنفاً ووحشية من أن يكون إنساناً؛ لأن الجانب الإنساني لا يحمي السلطة كثيراً. وعندما يربط بين الجانب الحيواني، يقول أيضاً أنه يجب عليه أن يضم بين القوة والحيلة والغش؛ لأن السياسة

تتطلب من الفاعل السياسي أن يكون كذلك؛ أي أن يكون ذكياً ويعرف أين توجد الثغرات والضعف ليتغلب عليها ويتجاوزها، وإذا عرف ضعف خصمه أو عدوه السياسي، يجب أن يستفيد من هذا الضعف لمصلحته، ويجب أن يكون قوياً بما لديه من قوة عسكرية واقتصادية التي تجعل الخصوم يخافون منه، ولكن من يركز على الجانب القاسي في السياسة، فإنه لا يعرف كيف يفعلها، ولدينا في التاريخ السابق والحاضر أمثلة، مثل جمال عبد الناصر، صدام حسين، معمر القذافي، هؤلاء الزعماء السياسيون اعتمدوا فقط على الجانب القاسي لعملهم السياسي، ففقد عبد الناصر حرب أكتوبر ١٩٧٣، وفقد صدام حرب الكويت التي تلاها احتلال أمريكا للعراق، وفقد القذافي ليبيا في صراعه مع الشارع الليبي.

فالسياسي يحتاج إلى هذه الصفات والخصائص التي تمكنه من تشكيل صورة سياسية، تصبح طبيعته بسبب الضرورة السياسية حتى لو لم يمتلكها؛ لأن المظاهر هي التي تسيطر على العالم (Octave Larmaganc-Matheron, philosophie magazine, Machiavel, comment le pouvoir se prend, se garde ou se perde, Hors-série, page 19)، أي أنه يتقن هذه الصفات كصفات القوة والمكر، ويبرع في هاتين العمليتين خاصة صفة الثعلب، التي تجعله مداهناً كبيراً، يخدع الآخرين بسهولة، ولا يكشفون حيلته. وفي هذا السياق، يجب على الأمير أيضاً أن لا يلتزم بما يقوله ويوعده؛ لأن الوعد الذي يعطيه قد يظهر عيوبه، أو تنتهي أسبابه، فإذا كان الناس صالحين، يؤمنون بوعده، لكن إذا كانوا شريرين ولا يفيون بوعودهم مع الأمير، فهذا يدفعه إلى أن لا يفي هو أيضاً بالوعد الذي يعطيه (Nicolas Machiavel Le Prince, Hatier Poche, Chapitre XVIII, 2007 P. 85). ولكن عدم الوفاء بالوعد لا يكون بالطريقة الواضحة، بل يجب تزيينه، ويمكنه التخفي والغش؛ لأن الناس غبيون ويمكن خداعهم(The previous source). فالتنازل عن الوعد ليس عشوائياً أو صدفة كما ذكرنا، بل يخضع لموازين قوى هي التي تحدد موقف الفاعل السياسي، هل يتراجع عن وعده أم لا، أي أن العامل الحاسم وراء فسخ عقد الوفاء بالوعد بين طرفين سياسيين هو المصلحة أساساً التي تجعله في ذلك الوقت، إما قوياً أم ضعيفاً في مجال

السياسة، كما فعل الرئيس الأمريكي دونالد ترامب عندما انسحب من اتفاقية باريس للمناخ؛ لأن هذه الاتفاقية البيئية تضر بمصلحة بلاده الاقتصادية، فقرر الانسحاب من الاتفاقية رغم أن الأمر يتعلق بتهديد عالمي للبشرية، لكنه أولى مصلحة بلاده على الجميع، وبهذا المعنى يرى مكيافلي أن مجال السياسة هو مجال الشر، لذلك لا يمكن الوفاء بالوعود عندما تتعارض مع مصلحة الدولة. ولذلك، يجب على الأمير أن يكون لديه بعض المهارات والكفاءات، فليس من الضرورة الطبيعية أن يمتلك هذه الخصال، خصوصاً وأن فعل السياسة يتطلب القدرة على الظهور على خشبة المسرح، وفي نفس الوقت عليه أن يعرف جمهوره.

مكيافلي ينصح الأمير بأن يبتعد عن الاحتقار والازدراء والكراهية (Octave Larmaganc-Matheron, philosophie magazine, Machiavel, comment le pouvoir se prend, se garde ou se perde, Hors-série, page 21)، لأنها تهدده، ويجب أن يظهر أعماله بشكل ينم عن العظمة، والشجاعة، والمجد، وعندما يحكم في الشؤون الخاصة لرعاياه، يجب أن تكون عقوبته قاطعة، ويصر على قراراته حتى لا يظن أحد أن يغشه، فعليه أن يبني فكرة العظمة عنه لدى الآخرين (Nicolas Machiavel, Le Prince, Hatier Poche, Chapitre XIX, 2007 P, 88). فالسياسي يصنع الكراهية والازدراء لنفسه، حيث يشكل صورة عن نفسه تجعله مكروها وحقيرا لشعبه، وفي هذا الإطار يجب أن ننظر إلى عملية التمسرح السياسي، فالظهور والاختفاء هي التي يركز عليها مكيافلي أساساً، إذ يشدد على ظهور السياسي في صورة تعكس عظمته؛ أي أن يصنع لنفسه قوة تظهر من خلال عمله؛ أي أن السياسية هي صناعة الصورة أمام الجمهور. لذلك، فالاحتقار والازدراء الذي يكتسبه الأمير يكون نتيجة صناعتهما ضد نفسه من خلال أعمال، قد تكون عادية في الميدان الاجتماعي لكن للسياسة شروطها وقواعدها، ومن هذه الشروط التي يلح عليها مكيافلي هو شرط الحزم والتمسك بالقرارات التي يأخذها الأمير، لكي يعطي لنفسه صورة الأمير الحازم والقوي، وإن لم يكن هو كذلك؛ لأنه حينما يصنع هذه الصورة عن نفسه سيجبر الآخرين على احترامه واحترام المسافة بينه وبينهم، وسيخلق هيبة لنفسه. وفي السياق نفسه، على

السياسي أن يخشى وينتبه لشيئين؛ الأول متعلق بالتماسك الداخلي للدولة، والآخر متعلق بالقوى الخارجية؛ فالأمير يستطيع الدفاع عن نفسه من الثانية بالأسلحة القوية والجيدة، والأصدقاء المخلصين، فإذا كانت أسلحة جيدة يكون أصدقاء جيدون. والأحوال الداخلية ستكون هادئة، عندما لا تريد الأطراف الخارجية الاضطراب الداخلي ولا تعاني منه أيضا، وحينما تريد ذلك، فالأمير سينظم صفوفه، ولن يسمح بالاضطراب وسيواجهه، كما يجب أن يواجه رعاياه إذا كانوا يعملون لصالح القوى الأجنبية في السر، وبالتالي فعلى الأمير أن يؤمن نفسه من هذه المخاطر، بأن لا يكون مكروها ولا محتقرا؛ وذلك بإرضاء الشعب عنه (Nicolas Machiavel, Le Prince, Hatier Poche, Chapitre XIX, 2007 Pag, 89)، بمعنى آخر أن يعمل دائماً على الحفاظ على التماسك الداخلي للمجتمع، ويعمل على تمنيع الجبهة الداخلية لكي يستطيع مواجهة الخارج؛ لأنه كلما كانت الجبهة الداخلية السياسية والاجتماعية منيعة وقوية، رغم ما يمكن أن تواجهه من هزات، فإن الفاعل السياسي يستطيع أن يواجه الخارج، والعكس غير صحيح، ولو كان الفاعل السياسي معتمد على أقوى الحلفاء، فإنهم لن يتركوا له الفرصة لكي يقضوا عليه، لأنه منخور من الداخل.

يمكن القول إن الازدراء والاحتقار يمثلان عاملين رئيسيين من قبل الفاعل السياسي؛ وهما القوى الخارجية، أو ما يطلق عليه في اللغة السياسية المعاصرة بالبيئة الإقليمية والعالمية؛ لأن العلاقة مع القوى الخارجية تعتمد على قوة الدولة من الداخل، أي أن الفاعل السياسي عندما يكون قوياً على المستوى الداخلي بواسطة القوة العسكرية والولاء لأقاربه، وكذلك هدوء أعدائه أو حتى توافقهم الجزئي معه، يكون في وضع مريح في علاقته مع الآخرين، ولكن ولاء الأقارب مرتبط أيضاً بالقوة العسكرية؛ أي أن الفاعل السياسي يجب أن يمتلك جيشاً قوياً، وهذا الجيش هو ما يجذب الأقارب ويجعلهم مخلصين له، فكلما كان الفاعل السياسي أقوى على المستوى العسكري كان لديه ولاءات متنوعة وقريبة منه، أو ما نسميه اليوم بالتحالفات بين الدول، ولكن لأن السياسة تشمل شراً لا مفر منه بالنسبة للحاكم، فإن العمود الذي يجب أن يعتمد عليه الحاكم هو الشعب وولائه له؛ لأن القوى الأجنبية عندما تشاهد اضطرابات على المستوى الداخلي، تحاول أن

تزيد منها وتستغلها تحت أسماء مختلفة، ولذلك يجب أن يخلق السياسي لنفسه صورة تظهر عظمته في الداخل، حتى لا يكون محتقراً ومبغوضاً، وذلك بإرضاء الشعب عنه. ولهذا السبب يعتقد مكيافلي أن الأمير يجب أن يكون قوياً في تجاهل المؤامرات، لأن الشعب معه(Nicolas Machiavel, , P, 91. op. cit., 2007). وبالإضافة إلى ذلك، يرى مكيافلي أنه من الضروري أن تكون الدولة لديها قوانين وتنظيم مثل فرنسا في ذلك الوقت، والتي كانت تمتلك مؤسسات قوية(Nicolas Machiavel, Le Prince, Hatier Poche, Chapitre XXV, 2007 P. 91)، وهو ما يعتمد عليه الأمير لأمنه وحريته، ومن بين هذه المؤسسات البرلمان بسلطاته القوية؛ لأن واحدة من أهم الضمانات السياسية لراحة الحاكم هي قوة المؤسسات، على سبيل المثال إذا كان الجهاز التشريعي . البرلمان . قوياً بممثليه في خدمة مصالح الدولة والشعب، فإن هذا يرضي الشعب، وإذا كانوا راضين فبالتأكيد سيكونون راضين عن الحاكم، ولذلك ينصح مكيافلي أنه من الضروري أن يعمل على إرضاء الشعب عنه لكي يحصل على الشهرة، ولكن لا يجب أن يكون على حساب الشعب حتى لا يكرهه. ومسألة مهمة يجب أن يدركها الأمير، وهي أن الكراهية قد تنتج من الأعمال الجيدة والخيرة، على عكس أن تنتج من الأعمال الشريرة، ولذلك ولحماية الأمير لسلطته يجب أن يقوم بأعمال ليست جيدة، فإذا تلفت أحد مراكز القوة الداخلية "الشعب، الجيش، النخبة" ويريد الأمير حماية سلطته، فيجب أن يتبع رغبة أحد الأطراف، وهنا سيجد الأمير أعداء له بأعماله الحسنة(Nicolas Machiavel, op. cit., 2007, p. 94)، ويبدو أن ممارسة الخير من أجل الخير قد تؤثر سلباً على السياسي في مجال السياسة، وبالتالي يجب أن يكون الخير ليس هدفاً في حد ذاته، ولكن لمصلحة الدولة، على سبيل المثال قد يمنح الحاكم أحد النخبة بالمال والممتلكات، معتقداً أنه يقوم بعمل جيد لنفسه، ولكن هذا الفعل قد يكون له عواقب سلبية عليه، بأن يجعل شخصاً ما قوياً دون أن يعلم، وبالتالي فممارسة الخير بالنسبة لمكيافلي يجب أن تكون بالقدر الذي لا تضر فيه مصلحة الدولة، وإذا شعر الحاكم بأن سلطته مهددة يجب أن يقوم بفعل الشر، وهنا يمكن أن نذكر مثالًا من الواقع المغربي، حيث أقرت الدولة ما يسمى بإصلاح التقاعد، ولكن هذا الإصلاح فيه ضرر للموظفين ، ومع ذلك؛ إذا كانت

الدولة ترغب في الحفاظ على نفسها من الضغط الناتج عن الإنفاق الاجتماعي، والاستفادة أيضاً من القروض التي تقدمها المؤسسات الدولية، فعليها أن تتخذ هذا القرار السياسي، ولذلك قد يكون الشر ضرورياً لصون الدولة.

وفي النهاية، سنناقش مفهوماً غريباً في مجال السياسة يطلق عليه مكيافيلي اسم الفورتونا، أو ما يمكن تسميته بالمصادفة أو الحظ كترجمة مقربة، حيث يعتقد أن العديد من المفكرين يرون أن العالم يخضع للفورتونا والله، وأن القدرة البشرية (في التفكير والتخيل) غير قادرة على التصحيح(Nicolas Machiavel, op. cit., 2007, p. 188) والناس لا يمكنهم التغيير، وبالتالي فإن الأمر لا يحتاج إلى الكثير من الجهد، ولكن في رأيه يرى أن هناك جانباً من الحرية موجوداً، يتخيل أنه يمكننا التحكم في الفورتونا لمصلحة أعمالنا، وأنه ترك لنا شيئاً بإمكاننا السيطرة عليه(Nicolas Machiavel Le Prince, Hatier Poche, Chapitre XXV, 2007 P, 108). ويقارن مكيافيلي الفورتونا بنهر غاضب يجتاح السهول ويقتلع الأشجار ويهدم المباني وينقل التربة من مكان إلى آخر، والجميع يهربون من أمامه، ولا يستطيعون فعل أي شيء أمام هذه المشكلة، ولكن عندما تتخذ الإجراءات اللازمة له في أوقات السكون، وتضع له القنوات والسدود، يمكن للناس أن يقللوا من قوته وقوته، ويجعلوه يخدمهم.

أولاً: يعتبر مكيافيلي أن الإنسان ليس مطيعاً تماماً للفورتونا، بل هناك جانب من الحرية في السلوك والإرادة، إذا عرف وفهم العوامل المحيطة به، واستطاع توجيهها قبل أن تضر به، فلن يعرف ماذا يفعل، بمعنى آخر أن يكون لدى الحاكم القدرة على قراءة جميع العوامل التي تحدث في المشهد السياسي الداخلي والخارجي، وأن يتوقع النتائج المحتملة من هذه العوامل، وأن يفهم أيضاً موازين القوى أين هي وإلى أين تتجه، وبناءً على ذلك يتطلع إلى الآفاق المستقبلية في السياسة، وما هي حظوظه وموقعه في تلك الآفاق، ويعطينا مكيافيلي مثالاً على النهر الجارف إذا تم التحكم فيه في وقت هادئ، فإن النتائج ستكون مفيدة للناس في وقت غاضب، بالقنوات التي تمكنه من العبور، والسدود التي تحتجزه حتى تمتلئ. بهذا المثال، كأن مكيافيلي يريد أن يقول لنا أن للفورتونا قانوناً، إذا تمكنا منه، فسيكون لمصلحتنا في مجال السياسة، وإذا لم نتمكن منه، فسيجرفنا في

مصيره كما تجرف الأودية ما تجده أمامها، ويقول إنه إذا تغيرت طبيعة الظروف، فإن الفورتونا لن تتغير(Nicolas Machiavel, op. cit., 2007, p. 120) على سبيل المثال، قد تتغير ظروف غليان الماء، سواء كانت مكانية أو زمانية، لكن قانون غليان الماء لا يتغير.

في الخاتمة، يجب على الأمير أن يفرض موازين القوى؛ لأنه لا يوجد نظام جاهز، فالقواعد تتغير مع الزمن، وفقاً لمتطلبات كل حالة، وعلى الفاعل السياسي أن يتفاعل مع الزمن والبيانات، لأنه نادراً ما تتطابق البيانات مع الفورتونا، لذلك يجب على الحاكم أن يتقدم الحظ ويتحكم فيه، والمحور الأساسي لأطروحة مكيافيلي في هذا الجانب هو كيفية الاستفادة من الفورتونا، لأن هذا الاستفادة مرتبط بالأساس، بخضوع العمل السياسي للظروف والسياق والتناقضات الزمنية. يجب على رجل السياسة أن يتوقع الأحداث، وأن يتقدم ويذهب في اتجاه الحدث، وأن يتحكم في التناقضات الزمنية، بمعنى آخر يجب ألا يكون الحاكم في النقطة السلبية، ولهذا يجد مكيافيلي في مفهوم الحظ قانوناً، يمكن التحكم فيه، وعلى الفاعل السياسي ألا يترك شيئًا للمصادفة، وأن هذه التناقضات هي من الضروريات الخارجية، وعلى الأمير أن يتصرف تجاهها وليس أن تمارس عليه الضغط. وامتلاك السياسي لهذه القدرة والقدرة لا ينبع من التفاعل السلبي مع العوامل، بل من استخدام قانون الفورتونا، وقانون الفورتونا يفرض بعض القواعد: هو أنه لا يعترف بمن يخضع له، بل بمن يقاومه، ويرى مكيافيلي أنه على رجل السياسة، من الأفضل أن يكون جريئاً ومغامراً، من أن يكون حذراً ومتأنياً، لأن الفورتونا كالمرأة، تنحني بالضرورة لمن يقاومها لينتصر، ولهذا السبب تكون المرأة (الفورتونا) صديقة الشباب؛ لأنهم أقل حذراً، وأكثر قوة وتحكماً مع شجاعة أكبر(Nicolas Machiavel, Le Prince, Hatier Poche, Chapitre XXV, 2007 P. 212).

نرى هنا أن السياسة كفعل لا تحتاج إلى التعامل مع ما هو مثالي، بل ما هو حقيقي أولاً؛ لأن هناك ضرورة سياسية تجبر الفاعل السياسي على أن يكون أكثر واقعية في السياسة؛ لأنه إذا اتبع السياسة بما يجب أن تكون، فلن يتمكن من القيام بأي عمل في مجال السياسة، حيث سيصبح المثل حاجزاً له، أو قد يطرده من مجال السياسة،

ولذلك يحتاج إلى أن يكون قوياً وحاسماً، ومن ناحية أخرى أن يكون لديه مؤسسات قوية تمتلك قوانين صارمة تحمي الدولة من أي اضطراب محتمل ، كما يحتاج إلى أن يتجنب الازدراء والاحتقار والبغض، فهذه الصفات ستجعله مكروهاً ولذلك يحتاج إلى أن يمتلك صورة سياسية يديرها بشكل جيد وينشرها أيضاً، وفي سياق الواقعية السياسية أيضاً يحتاج الفاعل السياسي إلى أن يكون على دراية بجميع الظروف التي تحيط به بعيداً أو قريباً، حتى يكون لديه القدرة على التفاعل معها بحرية.

العنف السياسي:

في كتابه الأمير، يقدم مكيافلي رؤية للسياسة تعتمد على استخدام العنف كوسيلة لتحقيق الأهداف السياسية. وهو يخالف النظريات الأخلاقية السائدة التي تنظر إلى العنف كشيء مذموم في السياسة. وبالنسبة لمكيافلي، فإن العنف هو جزء لا يتجزأ من العملية السياسية، ولا يمكن الفصل بينه وبين السياسة. ويعتبر مكيافلي أن الحاكم يجب أن يكون ماهراً في فن الحرب، سواء في زمن السلم أو الحرب، وأن يتعامل مع المعارضين الداخليين بقوة، خاصة إذا كان حديث العهد. ويقول مكيافلي إن الحرب هي الغاية الوحيدة التي يجب أن يسعى إليها الأمير، وأن ينظمها، لأنها تتعلق بمصير الحاكم والدولة. وأن إهمال فن الحرب يؤدي إلى خسارة السلطة، وأن هذا الفن يتطلب التدريب والممارسة. (Nicolas Machiavel, Le Prince, Hatier Poche, Chapitre XVI, 2007 P, 72)

وفقاً لمكيافلي، فإن الحاكم يجب أن يجعل الحرب أولويته القصوى، وأن يقوي دولته عسكريا؛ لأن بقاء الدولة يعتمد على قوة هذا الجانب، وأن يفكر في الحرب باستمرار. إذا تجاهل الحاكم فن الحرب، فسيفقد الدولة، لأن الدولة الضعيفة التسلح أو التي لا تهتم بهذا الجانب، ستواجه مشاكل، وستصبح محتقرة مقارنة بالدولة التي تكون مسلحة جيداً. ولهذا السبب، يرى مكيافلي أن هناك فرقاً بين الأمير المسلح والأمير غير المسلح (Nicolas Machiavel, op. cit., 2007, p. 72)، فالأول قوي وله هيبة، والثاني محتقر، ولذلك يجب على الأمير ألا يتنازل عن التفكير في الحرب، وأن يمارسها

حتى في زمن السلم. وهنا نرى أن هناك مستويين للحرب، الأول يتعلق بالتفكير في الحرب، بمعنى أنه ليس ضرورياً أن يكون هناك عدو موجود للتفكير في الحرب، بل يجب افتراض وجود عدو محتمل والاستعداد له، والمستوى الثاني يتعلق بممارسة الحرب في أوقات السلم، أو ما يُعرف في الوقت الحالي بالتدريبات العسكرية، حيث تختلق الدولة الحرب بشكل رمزي، وتشارك فيها لتكون مستعدة لها، وتتعرف على الجغرافيا التي تقع فيها، وتتعرف على العدو وكيف تهزمه؛ وذلك تحضيراً لمواجهة الفورتونا والاستعداد لمقاومتها(Nicolas Machiavel, op. cit., 2007, p. 74).

في سياق الحرب، ينصح مكيافلي الأمير بأن يتحلى بالحكمة والوحشية، ولكن أن يركز أكثر على القوة الحيوانية، وهي القوة العنيفة والغريزية التي تميزه عن البشر. ويجب على الأمير أن يكون رهيباً في عيون الناس، أو على الأقل أن يظهر هذه الصورة، وأن يمتلك قوة صلبة مثل الأسد وقوة ناعمة مثل الثعلب. وهذه القوة تختلف باختلاف الظروف، فأحياناً يجب على الأمير أن يكون حازماً مع الأعداء، وأحياناً أن يكون حذراً من فخاخهم.

وفي مجال التنظير السياسي، كان هناك بعض المفكرين والفلاسفة الذين اعترفوا بالعنف السياسي، مثل هوبز(Thomas Hobbes is an English philosopher who was born in 1588 and died in 1679, and he is one of the most prominent representatives of the social contract philosophy. Among his famous books are Human Nature (1650) and Leviathan 1651).، الذي يرى أن العنف هو طبيعة الإنسان، وأن الإنسان في حالة الطبيعة هو عدو لإنسان آخر، ولهذا السبب؛ عندما ينتقل إلى مرحلة الثقافة والدولة، يجب أن تمتلك الدولة العنف لنفسها، لأنها تدرك أن الإنسان عنيف بفطرته. وهذا ما اتبعه كارل ماركس(Karl Marx is a sociologist, philosopher, economist, and journalist who lived between 1818 and 1883, and he is one of the most important scientific theorists of the socialist thought. He wrote many critical and analytical books, such as The Jewish Question (1842),

Contribution to the Critique of Hegel's Philosophy of Right (1844), The German Ideology (1846), and his most famous work Capital (1867)), which was completed by his friend Friedrich Engels، الذي يدعو إلى أن تستولي الطبقة العاملة من الفلاحين والعمال على العنف الثوري، بعد أن كانت البورجوازية هي التي تملكه من خلال بنيتها الفوقية التي تعكس البنية التحتية، ولذلك يجب أن تصبح الجماهير الشعبية عنيفة، تحت اسم ديكتاتورية البروليتاريا. وهناك أيضًا نموذج آخر، وهو ماكس فيبر (Max Weber is a sociologist and economist who lived between 1864 and 1920, and he is one of the most important theorists of rationality and bureaucracy in work. Among his prominent books are The Vocation Lectures (1919), The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism (1920), Essays in Sociology (1922), and Economy and Society (١٩٢٢))، الذي يمنح الدولة الشرعية الكاملة لامتلاك العنف لديها، وبالتالي فإن ممارستها للعنف عندما تنتهك البنية والنظام تكون مشروعة وقانونية.

يدافع ميكافيلي في كتابه الأمير عن موقف لاأخلاقي تجاه السلطة، ويعتبره واقعياً وطبيعياً. وينكر وجود أي معيار أخلاقي يميز بين الشرعية والغير شرعية في استخدام القوة. ويعتقد أن السلطة والقوة هما متساويان ومترابطان، وأن من يملك القوة له الحق في قيادة الدولة والمجتمع. وينفي أن الخير يكفي لضمان القوة، أو أن الفاضل يتمتع بميزة بسبب فضله. ويتناقض هذا الموقف مع النظرية الأخلاقية للسلطة، التي ترى أن الحاكم السياسي يجب أن يسعى لاكتساب القوة والمحافظة عليها. وينتقد ميكافيلي مفهوم السلطة، ويزعم أن مفهوم الحقوق الشرعية للحاكم لا يضيف شيئاً إلى الامتلاك الفعلي للقوة. ويروي أن الناس مضطرون للخضوع لسلطات الدولة العليا دون تحفظ. ويعتبر الإكراه هو العامل الذي يجبر الناس على احترام السلطات العليا للدولة. ويقول: "لو كنت أظن بأنني لست مجبراً أن أخضع لقانون ما، فما الذي سيحملني حقًا على الخضوع له؟، لا شك أنه الخوف من قوة الدولة أو الممارسة الفعليّة لهذه القوة. فقط القوة هي التي ستحسم أمر تنفيذ

الرؤى المتعارضة حول ما يجب علي أن أفعله، سأختار العصيان فقط إذا كنت أمتلك القوة لمقاومة مطالب سلطات الدولة، أو سيكون لدي الاستعداد لتحمل عواقب تميز الدولة بالقوة القسريّة"(Hikma website – Niccolò Machiavelli – Author: Cary Nederman – Translation: Muhammad Rida). ويوضح ميكافيلي معنى الأمير الكفؤ، بأنه الأمير الذي يتمتع بـ "تصرف مرن". وهو الأمير الذي يستطيع تغيير سلوكه من الخير إلى الشر والعكس حسب الظروف والحظ. ويؤكد ميكافيلي في "الأمير" أن رئيس الدولة يجب أن يكون خيّراً متى كان ذلك ممكناً، ولكنه يجب أن يكون مستعداً لارتكاب الشر متى اقتضت الحاجة أيضاً.(The previous source)

بشكلٍ عام ينظر ميكافيلي إلى سلطة "الدولة" على أنها ملكية شخصية أو وراثية، ويتفق مع النظرية السائدة في العصور الوسطى التي تعتمد على النظام الملكي كأساس للحكم. ولا يجد ميكافيلي مكاناً لفكرة النظام الدستوري الثابت الذي يمثل جوهر الفكر السياسي الحديث وممارسته، عندما يتحدث عن حكومة الأمير، رغم أنه يمتدح النظام الجمهوري، ويعتبر أن الشعب في النظام الجمهوري أفضل من الأمير في الفضيلة، ويرى أن النظام الجمهوري يتمتع بحساسية سياسية وقدرة على التطور والتجدد، وهو أكثر احتراماً للاتفاقيات والمعاهدات الدولية من النظام الملكي. ولكن (الأمير) بغض النظر عن كيفية وصوله إلى العرش، فإنه يضطر إذا أراد الاستمرار في السلطة، أن يتبع بعض القواعد العملية المحددة. وهذه القواعد العملية، هي استخدام العنف والقسوة وعدم الرأفة وعدم الوفاء بالتعهدات والكذب إذا اقتضى الأمر، ولهذا السبب، يرفض ميكافيلي آراء المفكرين في عصره الذين طالبوا الأمير بأن يهتم بحياة الفضيلة من أجل تحقيق الشرف والمجد والشهرة.

الخاتمة

بعد استعراض أبرز المحطات الفكرية والآراء الفلسفية للفيلسوف السياسي مكيافلي، الذي عاش في القرن السادس عشر، وصاحب الكتاب الشهير *الأمير*، الذي يعتبر من أهم المراجع في الفكر السياسي الحديث؛ أتضح لنا أن مكيافلي أول من فصل بين الأخلاق والسياسة، وأنه دافع عن استخدام الوسائل المشبوهة والعنيفة لتحقيق الأهداف السياسية، وأنه قال بأن "الغاية تبرر الوسيلة"، وهي عبارة فُهمت بغير مُرادها، ولكنها تلخص ما يسمى بـ"مكيافيلية" السياسة.

لكن ما هو المراد بهذه العبارة التي تنسب ما لمكيافلي؟ وهل هناك تفسيراً آخر لفلسفته السياسية؟ هذا ما سنتطرق له في هذه الخاتمة التي تلخّص الجانب الآخر الذي اتّضح لمكيافلي، في جانب أكثر تعقيداً وتنوعاً وعمقاً، جانب يكشف عن رؤية واقعية وبرغماتية للسياسة، لا تنفي الأخلاق، ولكن تضعها في إطارها الخاص. فمكيافلي لم يكن شيطان السياسة، بل كان محللاً نقدياً للواقع السياسي الذي عاش فيه، والذي كان مليئاً بالفوضى والصراعات والتحالفات والخيانات. وكان هدفه الأسمى هو إيجاد حل لمشكلة الدولة الإيطالية، التي كانت مقسمة ومهددة بالغزو من قبل القوى الأجنبية. ولذلك، كتب مكيافلي كتابه *الأمير*، كنوع من الدليل العملي للحاكم الذي يريد أن يؤسس دولة قوية ومستقرة وموحدة، ويحافظ عليها في ظل الظروف الصعبة.

ولتحقيق هذا الهدف، اعتمد مكيافلي على مبدأ الواقعية السياسية، وهو مبدأ يقوم على دراسة الحقائق والظروف والنتائج، دون الالتفات إلى المثالية أو المطلوبة أو المستحبة. وبناء على هذا المبدأ، أوضح مكيافلي أن السياسة لها أخلاقها الخاصة، وهي أخلاق تختلف عن الأخلاق العامة أو الدينية، وأن الحاكم يجب أن يتصرف بحسب ما تقتضيه المصلحة العامة، وليس بحسب ما يقتضيه ضميره أو عقيدته. وهذا لا يعني أن الحاكم يجب أن يكون شريراً أو فاسداً أو مستبداً، بل يعني أنه يجب أن يكون حكيماً وماهراً ومتزناً، وأن يجمع بين القوة والحنكة، وأن يتحلى بالصفات التي تجعله محبوباً ومحترماً من قبل شعبه، ومخوفاً وموقراً من قبل أعدائه. وفي هذا السياق، يرى مكيافلي أن القوانين هي الأساس الذي تقوم عليه الدولة، وأنها يجب أن تكون عادلة ومنصفة

ومنظمة، وأن تحمي الدولة من الفساد والانقسام والانهيار. ولكن القوانين ليست كافية بحد ذاتها، بل يجب أن تكون مرنة وقابلة للتغيير، بحسب ما تتطلبه الظروف والمواقف. وهنا يأتي دور العملية التي سماها مكيافلي بالتمسرح السياسي، وهي عملية تتمثل في أن يتظاهر الحاكم بأنه يتبع المبادئ والقيم والأخلاق، وأن يستخدمها كوسيلة لإقناع وإرضاء الشعب والحلفاء والخصوم، ولكن في الحقيقة يتبع ما يخدم مصلحته ومصلحة الدولة، ويتجاوزها عند الحاجة. وهكذا، يمكننا أن نقول أن مكيافلي لم يكن مبرراً للشر أو المكر أو العنف في السياسة، بل كان مفسراً لها، ومقدما لحلول برغماتية وواقعية، تهدف إلى تحقيق الهدف الأعلى، وهو الحفاظ على السلطة والدولة. وهذا الهدف لا يعني الاستبداد أو الطغيان، بل يعني الأمن والاستقرار والرخاء. وهذه الرؤية للسياسة لا زالت مؤثرة ومنطبقة إلى يومنا هذا، فرغم أن مكيافلي كتب في زمن مختلف، وفي سياق تاريخي محدد، إلا أنه استطاع أن يطرح نظرية سياسية عامة، تناسب كل زمان ومكان، وتلامس الواقع بكل تعقيداته وتحدياته. وهذا ما جعله من أبرز المفكرين والفلاسفة السياسيين في التاريخ، وما جعله يستحق لقب "أب السياسة الحديثة".

وفي الختام؛ آمل أنني استطعت إجلاء الإبهام عن جوانب مهمة في فكر الفيلسوف الإيطالي، والتي ساهمت بشكل فعّال في تفسير الظواهر السياسية ووضع الحلول التي يرى الفيلسوف بملائمتها للوضع السياسي العام.